

الثاني، أنه كان متيقنًا أن البشر إذا أتاحت لهم الأوضاع المناسبة، فإنهم يُخرجون أفضل ما لديهم. وتزداد ثقمتهم بأنفسهم وبالمحيطين بهم.

والمثير للسخرية السوداء أن علاقة سلامة الممبزة مع طلابه وأصدقائه والمقربين منه أثارت حفيظة الأجهزة الأمنية في سورية. فسئل عنها في غير مرة، وعن مقاصده من ورائها، ما يعكس تلك الذهنية الأمنية التي ترتاب في كل سوري يؤمن بالناس، ويثق بهم، إذ أصبح إيمان السوريين بعضهم ببعض خطرًا على أمن النظام واستقراره، وينحو على الضد من سرديّة الأجهزة الأمنية التي كي تبرئ نفسها تهم الجميع بالفساد والتطرف، وبأنهم غير مؤهلين للديمقراطية، ولا يمكن الثقة بهم.

لم يكن سلامة رئيس تحرير مجلة قلمون فحسب، فسرعان ما تحولت المجلة بعد تأسيسها في عام 2017 إلى قطعة منه، تسكن عقله وحياته، كأنها الابن الرابع له (عنده أبناء ثلاثة: سليم، وقاسم ورنيم). وغدت مجالًا أكاديميًا يسعى من خلاله إلى تكوين جماعة علمية سورية تواكب التحولات الكبرى، والتغيرات المتسارعة الرهيبة التي اجتاحت سورية. فكانت المجلة بالنسبة إليه مشروعًا فكريًا يسعى من خلاله إلى تحقيق أمرين يعدهما سورياً في غاية الأهمية:

**الأول:** سدّ النقص الهائل في الدراسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تتناول المجتمع السوري. فمن المعروف للسوريين أغلبهم أن آل الأسد منعوا -على مدى ما يزيد على نصف قرن- كل دراسة أو بحث جاد يتناول سورية من أي زاوية كانت. هم يعرفون تمامًا أن المعرفة العلمية تعريهم لأنها تكشف التغول الأمني، والفساد المالي، والتصحر السياسي، وحجم الدمار الاقتصادي الذي أنزلوه بسورية من أجل إخضاعها لسيطرتهم. وهي مهمة اعتقد سلامة أنها يجب ألا تترك للباحثين الأجانب فقط بل الأولى أن ينخرط فيها الباحثون السوريون أيضًا، فأهل سورية أدري بشعابها.

**الثاني:** تكوين جماعة علمية سورية، وتدريب السوريين على مجالدة البحث العلمي، ورفع سويتهم المنهجية،

## يوسف سلامة المثقف الذي جعل من هموم الناس قيمًا سياسية

رشيد الحاج صالح<sup>(1)</sup>

غادرنا في الرابع من آذار/ مارس مؤسس مجلة قلمون ورئيس تحريرها، المفكر الفلسطيني السوري الدكتور يوسف سلامة، لتخسر المجلة ومركز حرمون، ومعهما نحن الشعبين الفلسطيني والسوري، واحدًا من أبرز الحاملين لهموم المنطقة، والمنشغلين بقضاياها، فكرًا وإنتاجًا.

لم تعرف الساحة الفكرية السورية المعاصرة مفكرًا منفتحًا على طلابه وأصدقائه، منخرطًا في المجال السياسي الثقافي مثل يوسف سلامة الذي لم يكن مثقفًا يسكن برجه العالي، محيطًا نفسه بهالة مصطنعة بل حرص على قربه من الناس، يشاركهم همومهم، ويقوي عزائمهم، أخذًا بيد من يبحث عن سبل العلم والمعرفة، مجسدًا بذلك مفهومه عن دور النخب الفكرية في عالمنا العربي. نعم، أمن سلامة بالناس حين تبرمت منهم النخب، وتعاطف معهم في وقت حملتهم فيه تلك النخب مسؤولية كل تراجع وهوان، واضعًا نصب عينيه كل ما يمكن البناء عليه، لا ما هو سلبي يثير الإحباط والتشاؤم مما شغل تلك النخب، وحاز اهتمامها، ليقدم بذلك صورة مختلفة لنخب تحتاج إليها سورية وشعوب المنطقة، تشد أزر الناس، وترفع من ثقمتهم بأنفسهم، وقد اكتشف كل من عرفه بعد عام 2011 عمق نظرتة الإنسانية النبيلة.

مع تلك الرؤية، كان مفهوم النخبة أصعب وأبعد مما هو شائع عنه، ذلك أن ممارسة دور النخبة بوصفه تنظيرًا ووصاية متعالية، من أسهل الأمور، وأقلها تكلفة، فتقمصه عدد كبير من المثقفين، وعاشوه بتفاصيله كلها. أما سلامة، فأمن بنفسه وبقدراته لسبيين: الأول، اعتقاده بأنه يمتلك وعيًا وعلمًا عميقًا حصّله خلال رحلته العلمية الطويلة (استغرقت رسالة الدكتوراه وحدها نحو عشر سنوات)؛

(1) عضو هيئة التحرير في مجلة قلمون.

الوسيط بين الباحث والمحكم، والمقرب وجهات النظر بينهما. في النهاية، كثير من الباحثين أعربوا عن امتنانهم لبحوث كتبوها بسوية علمية أثارت فيهم مشاعر الرضى، لم يكونوا يتوقعون كتابتها. كان يعيد ترديد ما قاله هؤلاء الباحثون (في اجتماعات هيئة التحرير)، وكأنها مكافأة شخصية له.

آمن سلامة أن على الفلسفة أن تكون فلسفة سياسية، وإلا فلا معنى لها. فالفلسفة من دون سياسة أو من دون فكر منشغل بالقضايا والإشكالات التي تدور في فلك السياسة محض تنظير لا يقدم شيئاً بالنسبة إلى بلد مثل سورية؛ بل يمكن القول إن الهموم السياسية والأوضاع الصعبة التي يمر بها الشعبان السوري والفلسطيني هي من دفعته إلى التفلسف، ولذلك ليس للفلسفة وجود خارج تلك الهموم. وقد جسّد هو نفسه هذه الفكرة من خلال انخراطه في القضايا السياسية في أول فرصة سنحت للسوريين عندما خففت القيود على الرأي في ربيع 2001 (لأشهر فقط) عندما ورث بشار الأسد السلطة خلفاً لوالده. كانت السلطة السياسية مستعدة لإظهار نوع من المرونة مقابل تمرير عملية تسليم السلطة لبشار الأسد، وإيهام الناس بأنهم أمام سلطة جديدة منفتحة على الحوار والإصلاح السياسي. وبالفعل، قدم يوسف سلامة (على الرغم من شكوكه في نيات النظام الحاكم) محاضراته الشهيرة في منتدى رياض سيف، طالب فيها بتعديل المادة الثامنة من الدستور (تنص على أن حزب البعث قائد الدولة والمجتمع)، مبيّناً التناقض الواضح في هذه المادة. فكيف لحزب يتبنى أيديولوجية معينة أن يقود مجتمعاً متعدد المشارب والأيدولوجيات؟. على المجتمع أن يبقى فوق الأيديولوجية الحزبية. طبعاً، تبين أن بشار الأسد لم يكن جاداً في سياسة الانفتاح، واعتقل عدداً من المعارضين، وأغلقت المنتديات. غيرت السلطة السورية هذه المادة عام 2012 لتصبح: ((يقوم النظام السياسي للدولة على مبدأ التعددية السياسية))، وألغت قانون الطوارئ. لكن على عاداتها، سرعان ما التفتت على ذلك بقوانين ومؤسسات هدفاً لإفراغ الدستور من مضمونه، فظهر قانون مكافحة الإرهاب (القانون رقم 19 / 2012)، وبقي حزب البعث مشرفاً ومتحكماً في الدولة والمجتمع، وبقيت الأجهزة الأمنية متحكمة في الحزب من وراء الكواليس، ومنح الرئيس صلاحيات مطلقة، ولكن يبقى ما فعله يوسف سلامة

ليصبحوا قادرين على تحليل أوضاع سورية، وبنية نظامها الدكتاتوري بطرائق علمية. وبالفعل، فقد قدمت مجلة قلمون عدداً لا يستهان به من الباحثات والباحثين الشباب، المؤهلات والمؤهلين، خلال السنوات الثماني من عمرها، تناولوا مختلف المجالات البحثية في السياسة والاقتصاد والاجتماع والدين والهوية والتربية والنسوية والأدب المسرح والسينما ومجالات أخرى.

لكل عدد من أعداد مجلة قلمون قصة طويلة ورسالة خاصة أراد سلامة أن يتشاركها مع السوريين. فخصص أعداداً عدة للفئات التي نالت ظلمًا مضاعفًا في عالم آل الأسد، وخصص أعداداً أخرى جالت مع السوريين في مساجدهم ومدارسهم ومسارحهم وأسواقهم ورواياتهم ودور السينما التي يرتادونها، وكذا مكابدهم القهر والظلم الذي وقع عليهم، ليس بعقلية المشتكي أو المظلوم بل بعقلية من يريد أن يفهم ماذا جرى؟ وكيف؟ ولماذا؟ وهي أسئلة من دونها ليس للعلم أي معنى. وخصص أعداداً أخرى لقضايا حساسة تتعلق بالهوية والدين والمجتمع والدولة الوطنية ومهاجر السوريين الجديدة، وكانت فكرته أن على السوريين أن يقاربوا تلك المشكلات الممتلئة بالشكوك والتخيلات الاجتماعية والسياسية السلبية. فززع الثقة في بيئة عانى فيها الناس حوالى نصف قرن الظلم السياسي، والتفكير المنهجي، وتضخيم التفريق المناطقي (فرق تسد)، وهو ما يعد من وجهة نظر العلوم السياسة المعاصرة. لا سيما الثقافة السياسية، من أكثر القضايا إلحاحاً، وأصعبها في الوقت نفسه. وبالنتيجة، حوّل المجلة إلى معهد وطني مصغّر يمارس سلامة من خلاله أدواراً متداخلة؛ فهو مشرف على البحوث، ومحكم لها، ومناقش للباحث، وللمحكمين في الوقت نفسه. وهناك بحوث نشأت من خلال مناقشته مع الباحثين.

لكل بحث نشر في قلمون حياة كاملة تشبه حياة البشر؛ يبدأ سلامة مع الباحثين بمناقشات قد تطول وقد تقصر حول الملخص الأولي للبحث، إلى أن تتبلور فكرة البحث، وتتحدد المفاهيم، وتنضج أهدافه، ويستقر الرأي على المنهج الأفضل الذي على الباحث أن يسلكه. ثم تأتي مرحلة الكتابة والتحكيم، وهي الأصعب؛ فثمة بحوث أعيدت كتابة أجزاء منها أكثر من خمس مرات، وسلامة كثيراً ما لعب دور

لأفراد الشعب جميعهم من ناحية، وطلبًا للارتقاء بالمجتمع إلى أسلوب في الحكم، يجمع بين الديمقراطية السياسية والعدالة الاجتماعية<sup>(4)</sup>. مثلما كان مقتنعًا تمامًا بأن كل إنسان لا يمارس حقه في المشاركة بالفعل السياسي، لن يكون شخصًا طبيعيًا في نهاية الأمر، لأنه يفقد حقًا أصيلاً من حقوق الشخصية الحديثة. وبالنتيجة، فإن نضالات السوريين من أجل الحق في المواطنة والمشاركة السياسية هي نضالات إنسانية قبل أن تكون سياسية، لأن الاعتراف والكرامة والحقوق اليوم جزء أساس من حقوق البشر بوصفهم بشرًا.

وعلى الرغم من صراعه مع مرض علم به في بداية العام الحالي، أصّر سلامة على إتمام هذا العدد، ومتابعة أدق تفاصيله، وقضى ساعات من العمل يوميًا من المستشفى، منتهزًا فرصًا تُخفف فيها الأدوية القوية التي قررها له الأطباء ألمه الشديد. لعل الموت تمهل ليقدّم له أمنيته الأخيرة، بجهوزية هذا العدد من مجلة قلمون حول الآثار في سورية، وخروجه إلى النور. وكان له ذلك.

### محطات في حياة يوسف سلامة

- ولد في بلدة أم الزينات/ قضاء حيفا 1946 في فلسطين.
- هُجرت عائلته إلى سورية في عام 1948.
- أصيب بالعمى في طفولته المبكرة، ودرس في المدارس بلغة برايل للمكفوفين.
- حصل على إجازة في الفلسفة عام 1969 من جامعة دمشق.
- حصل على الماجستير في الفلسفة عام 1975 من جامعة القاهرة بإشراف الدكتور زكريا إبراهيم.
- نال شهادة الدكتوراة في الفلسفة عام 1985 من

هو الإسهام الفاعل في توجيه نظر السوريين إلى الدستور السوري وتناقضاته، وخطر العبث به.

بعد الثورة تشتت السوريون، وفرضت عليهم حروب وصراعات، ودخلوا في أزمت لعل أخطرها أزمة الهوية، والخوف من تقسيم البلاد، وتراجع مستوى الثقة بين السوريين بسبب الأحوال والصراعات التي عاشوها. قدم سلامة في هذا السياق مساهمته المعروفة حول (الجامعة السورية)، وهي فكرة جامعة للسوريين كلهم، لأنها (نتاج (مواطنة سورية) أو (وطنية سورية) أو (جامعة سورية) نحاول من خلالها، بوصفنا سوريين، أن نبني وطنًا موحدًا قويًا وعادلًا ومنصفًا وقادرًا على توحيد أبنائه جميعهم بإثنياتهم المختلفة ودياناتهم المتنوعة وطوائفهم المتباينة<sup>(2)</sup>، ويعد سلامة هذه الفكرة المخرج للسوريين من حروبهم وصراعاتهم وتلاعب القوى الدولية بهم.

لم يتزحج إيمان سلامة بالثورة السورية قيد أنملة، على الرغم مما لحق بها من تشوّهات، وما اعترأها من انزلاقات. أما ارتداد بعض (المثقفين) عن تأييد الثورة بسبب تلك التشوّهات، فأمر لا يقبله بل يحمل المثقف مسؤولية كبيرة، ذلك أن ((خيبة الأمل موقف إنساني، يمكن تفهمه))، ولكن المشكلة تعود إلى أن ((البنية المسيطرة على المثقف هي في الأغلب بنية طوباوية. وتزداد هذه الطوباوية قوة كلما تخلى المثقف عن ملكاته النقدية))، وأن ((التاريخ هزائم وانتصارات، وأول من ينبغي عليه أن يفهم ذلك هو المثقف)). ومثلما تعرض السوريون لويلات كبيرة، فقد النظام أيضًا كثيرًا من هيبته ومنزلته. وفي الأحوال كلها، سيبقى التنوير والعقلانية من الأساليب الأكثر فاعلية في إنتاج الوقائع الجديدة وتجنب الخيبات والعنف<sup>(3)</sup>.

يعتقد سلامة أن السوريين ضحوا كثيرًا ((دفاعًا عن حقهم في المواطنة. واستمرت هذه التضحيات بكيفية أعمق في الثورة السورية دفاعًا عن حقهم في تقرير المصير الذاتي

(2) يوسف سلامة، "الجامعة السورية.. ورقة مبادئ، موقع تلفزيون سوريا"، (1-7 - 2019). ينظر:

<https://bit.ly/4cnX75F>

(3) "لقاء مع يوسف سلامة"، المركز الكردي-السويدي للدراسات، (19-4-2017). ينظر:

<https://www.palestineforum.net>

(4) يوسف سلامة، "على هامش الوطن: تأملات فلسفية في مفهوم الوطن بمناسبة الذكرى السادسة للثورة السورية"، ع: 1، مجلة قلمون، (2017)، ص 20.

## مؤلفاته

- جامعة القاهرة بإشراف الدكتور حسن حنفي.
- عمل أستاذًا للفلسفة في جامعة دمشق (1987 – 2013).
  - دَرَس الفلسفة في جامعات عدة عربية وأوروبية في سورية وليبيا واليمن والدانمارك.
  - أشرف على عدد كبير من رسائل الماجستير والدكتوراه في جامعات عدة عربية وأجنبية.
  - عضو في منتدى الحوار الوطني الديمقراطي (منتدى رياض سيف) في عامي 2000 / 2001.
  - دعا في عام 2001 إلى تعديل المادة الثامنة من الدستور السوري التي تنص على أن حزب البعث قائد الدولة والمجتمع.
  - أستاذ وباحث في المعهد الفرنسي لدراسات الشرق الأدنى (2000 – 2012).
  - حصل على وسام السعفة الأكاديمية من مرتبة فارس من الحكومة الفرنسية.
  - حصل على (جائزة الإبداع) التي تمنحها إمارة الشارقة/2009.
  - نائب رئيس الجمعية الفلسفية العربية / مقرها الأردن (1998 – 2011).
  - هاجر إلى السويد مع عائلته عام 2013، بعد التدمير الذي لحق بمخيم اليرموك/ مكان سكنه.
  - رئيس تحرير مجلة قلمون منذ تأسيسها عام 2017 حتى وفاته.
  - توفي في 4 آذار/ مارس عام 2024 في مدينة مالمو/ السويد، مكان إقامته في المهجر.
- الإسلام والتفكير الطوباوي: هل الإسلام يوتوبيا، (نيقوسيا، مؤسسة عيبال، 1991).
- مفهوم السلب عند هيغل، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2001).
- من السلب إلى اليوتوبيا: دراسة في هيغل وماركيوز، (دمشق: دار حوران، 2006).
- الفيينومينولوجيا: المنطق عند إدمون هوسرل، (بيروت: دار التنوير، 2007).
- له عدد من المشاركات في كتب جماعية، وكثير من المقالات والبحوث الأكاديمية في عدد من المجالات العلمية.